متناثرات وطرائف

هذه المتناثرات تجمع بعض الأمور المهمة مثل « ثلاثيات ذى النون» ولقد عُنِىَ ذو النون بالثلاثيات التى توضح أمرًا من الأمور وتجمع فى كلمات قليلة زوايا من موضوع عام.

وقد جمعنا - فى هذه المتناثرات - بعض ردوده على السؤال التقليدى : كيف حالك ؟ . . أو كيف أصبحت ؟ . . وهى ردود طريفة لم يلتزم فيها ذو النون الرد التقليدى.

وجمعنا - أيضاً . . فى هذه المتناثرات - بعض ما هو طريف من مفردات ذى النون.

كان ذو النون يقول فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾[1] :

« **كأنه الآن فى أُذنى** ».

وسئل عن السماع والصوت الحسن ، فقال :

« **وَارِدٌ يزعجُ القلب إلى الحقِّ ، فمن أصْغَى إليه بحقٍّ تحقَّق ، أو بنفسه تَزَنْدَق** ».

وسئل عن سماع العظة الحسنة بالنغمة الطيبة ، فقال :

« **مزامير أُنْسٍ فى مَقَاصِير قُدْسٍ ، بألحانِ توحيدٍ فى رياضِ تمجيدٍ، بمطرباتِ الغَوانِى فى تلك المَعانِى .. المؤدِّية بأهلها إلى النعيم الدائم فى مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدر** » .

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

ثم قال :

« **هذا طَعْمُ الخير ، فكيف طَعْمُ النظر ؟** » .

قال : وسمعت ذا النون يقول - وقد وقف عليه رجل فسأله شيئاً - فقال له ذو النون :

« **إن المتكفِّل برزقك غير مُتَّهَم عليك** » .

وعن إسرافيل قال : سأل رجل ذا النون المصرى عن سؤال ، فقال له ذو النون :

« **قلبى لك مُقْفَلٌ ، فإن فُتِحَ لك أجبتُك .. وإن لم يُفْتَحْ لك فاعذرنى واتَّهِمْ نفسك** » .

وقال :

وسئل عن السفلة ، فقال :

« **مَنْ لا يبالى ما قالَ ولا ما قِيلَ فيه** » .

وقال :

« **إن للولىِّ خمسة أشياء خُصَّ بها دون الناس :**

الوَجْهُ الحَسَن ، والخُلُقُ الحَسَن ، والقلبُ الرَّحيم ، ولسانٌ لطيف ، واجتنابُ المحارم » .

وقال :

« **إن الله يَغَارُ أن يجمعَ بين أحبابه وأعدائه فى دار ، فلذلك جعلَ لكل فريقٍ دارًا** » .

وعن يوسف بن الحسين الرازى ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« اعلموا أن المحبَّ لله لا يعظمُ عنده الإيثار ، لأنه ليس شيء أعظم عنده من الله ، فينبغي أن يُرَى عليه أثرُ ذلك مِنْ رفض الدنيا ، لأنه من المحال أن يجتمع في القلب حبُّ الدنيا وحبُّ الله ، لأن من أحبَّ الله لم ينظر إلى غيره » .

وقال :

« طُوْبَى لمن تَطَهَّرَ ولَزِمَ الباب .. طُوْبَى لمن تَضَمَّرَ للسِّباق .. طُوْبَى لمن أطاع الله أيام حياته » .

وقال :

« مَنْ وثقَ بالمقادير استراح » .

وروى محمد بن عبد الملك بن هاشم ، قال :

«سئل ذو النون : ما لنا لا نقوى على النوافل ؟

قال :

« لأنكم لا تُصحِّون الفرائض » .

وقيل : من أدوم الناس ذنبًا ؟

قال :

« مَنْ أحبَّ دنيا فانية » .

وقال ذو النون :

« إلهي .. لو أصبتُ موئلاً ـ في الشدائد ـ غيرَك ، أو ملجأ ـ في المنازل ـ سواك ، لحقَّ لي ألاَّ أعرض إليه بوجهي عنك ، ولا أختاره عليك ، لقديم إحسانك إليَّ وحديثه ، وظاهر منَّتك عليَّ وباطنها ، ولو تقطعتُ في البلاء إربًا إربًا ، وانصبَّتْ عليَّ الشدائد صَبًا صَبًا ، ولا أجد مُشْتَكَى غيرك ، ولا مُفرِّجاً لما بي غيْر سواك.

فيا وارثَ الأرض ومَنْ عليها ، ويا باعثَ جميع مَنْ فيها ، وَرِّثْ أملى فيك منِّى أملى ، وبَلِّغْ هَمِّى فيك مُنتهَى وسائلى » .

وقال :

« اطلبِ الحاجةَ بلسانِ الفقرِ ، لا بلسانِ الحِكَم » .

وقال :

« استَحِ من الله أن تسأله ما تحبُّ وأن تأتى ما يكره » .

وقال :

« إن سرورك بالمعصية إذا ظفرتَ بها أشدُّ من المعصية » .

وعن محمد بن عبد الله بن ميمون قال : سمعت ذا النون يقول ـ وقد جاءه رجل يسأله أن يدعو له ـ فقال :

« إن كنت أيدتَ بصدق التوحيد فى الغيب ، فكَمْ من دعواتٍ سبقتْ لك، وإن كان غير ذلك فأىُّ دعاء ينفعك ؟! » .

ويروى يوسف بن الحسين قائلاً :

بلغنى أن ذا النون يعلم اسم الله الأعظم فخرجت من مكة قاصداً إليه حتى وافيته فى جيزة مصر . .

ومكث يوسف بن الحسين يخدم ذا النون سنة ، ثم قال له :

يا أستاذ ، أنا رجل غريب ، وقد اشتقتُ إلى أهلى ، وقد خدمتك سنة ، وقد وَجَبَ حقى عليك ، وقيل لى إنك تعرف اسم الله الأعظم . . وقد جرَّبتنى وعرفت أنى أهل لذلك ، فإن كنت تعرفه فعلِّمنى إياه .

قال : فسكت ذو النون عنى ولم يجبنى بشىء وأوهمنى أنه لعله يقول لى ويعلمنى ، ثم سكت عنى ستة أشهر ، فلما كان بعد ستة أشهر ـ من يوم مسألتى إياه ـ قال لى :

« يا أبا يعقوب .. ألستَ تعرف (فلاناً) ـ صديقنا ـ بالفسطاط ، الذى يجيئنا ؟» . . وسَمَّى رجلاً .

فقلت : بلى .

قال : فأخرجَ إلىَّ من بيته طبقاً فوقه مكبَّة مشدوداً بمنديل . . فقال لى :

« أوصلْ هذا إلى مَنْ سَمَّيتُ لكَ بالفسطاط » .

قال : فأخذت الطبق لأؤديه ، فإذا طبق خفيف يدل على أن ليس فى جوفه شىءٌ . . فلما بلغت الجسر ـ الذى بين الفسطاط والجيزة ـ قلت فى نفسى : ذو النون يبعث إلى رجل بهدية ، وها أنا أرى طبقاً خفيفاً . . لأبصرنَّ أىَّ شىء فيه .

قال : فحللتُ المنديل ، ورفعتُ المكبة ، فإذا فأرة قد قفزت من الطبق فمرَّتْ .

قال : فاغتظتُ ، وقلت : إنما سخر بى ذو النون ، ولم يذهب وَهْمى إلى ما أراد فى الوقت .

قال : فجئت إليه وأنا مُغْضَبٌ ، فلما رآنى تبسَّم وعرف القصة ، وقال :

« يا مجنون .. ائتمنتُكَ فى فأرة فَخُنْتَنِى .. ائتمنُكَ على اسم الله الأعظم ؟! .. قُمْ عنِّى ، فارتحلْ .. ولا أراك بعد هذا » .

ومن كلامه :

« لا يزال العارفُ ما دام فى دار الدنيا مترددًا بين الفَقْر والفَخْر، فإذا ذَكَرَ اللهَ افتخَر ، وإذا ذَكَرَ نفسَه افتقَر » .

وقال :

« سَلْ ما بَدَا لك منْ أمره ونهيه .. وتَلَقَّ ذلك بالتسليم والرضا والخضوع .. ولا تنقِّبْ بعقلك عما قد أُخْفِىَ عنك من أسراره ، مثل القَدَر وغيره .. فإن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد » .

يقول ذو النون :

« ثلاثة من علامة التوفيق :

الوقوع فى عمل البرِّ بلا استعداد له ، والسلامة من الذنب مع الميل إليه وقلة الهرب منه ، واستخراج الدعاء والابتهال » .

وقال يوسف بن الحسين :

سألت ذا النون :

ـ ما علامة الأخوَّة ؟

قال :

« ثلاث : الصفاء ، والتعاون ، والوفاء ..

فالصفاء فى الدِّين ، والتعاون فى المواساة ، والوفاء فى البلاء » .

وقال ذو النون :

« ثلاثة من أعلام الورع :

تَرْك الشبهة باحتمال المضرَّة فى المال والبدن ، وبَذْل الفَضْلَة خوفاً من دخول الخلل فى الفريضة ، والكفُّ عن الفضول خشية قساوة القلب » .

وقال :

« ثلاثة من أعلام التُّقَى :

مفارقة الذنب ، وسرعة الدمعة ، والانتفاع بالموعظة » .

وقال :

« ثلاثة من أعمال الكمال :

تَرْك الجَوَلان فى البلدان[1] ، وقلة الاغتباط للنعماء عند الامتحان، وصَفْو النفس فى السر والإعلان » .

وقال :

« ثلاثة من أعلام المحبة :

الرضا فى المكروه ، وحسن الظن فى المجهول ، وحسن الاختيار فى المحذور» .

« وثلاثة من أعلام الصواب :

الأنس به فى جميع الأحوال ، والسكون إليه فى جميع الأعمال ، وحب الموت بغلبة الشوق فى جميع الأشغال » .

« وثلاثة من أعمال اليقين :

النظر إلى الله ـ تعالى ـ فى كل شىء ، والرجوع إليه فى كل أمر، والاستعانة به فى كل حال » .

---

(١) أى : لغير غرض صحيح .

« وثلاثة من أعمال الثقة بالله :

السخاء بالموجود ، وترك الطلب للمفقود ، والاستنابة إلى فضل الموجود » .

« وثلاثة من أعمال الشكر :

المقاربة من الإخوان فى النعمة ، واستغنام قضاء الحوائج قبل العطية ، واستقلال الشكر لملاحظة المنَّة » .

« وثلاثة من أعلام الرضا :

ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب فى حشو البلاء » .

« وثلاثة من أعمال الأُنس بالله :

استلذاذ الخلوة ، والاستيحاش من الصحبة ، واستحلاء الوحدة » .

« وثلاثة من أعلام حسن الظن بالله :

قوة القلب،وفُسْحة الرجاء فى الزلَّة، ونفى الإيَاس بحسن الإنابة» .

« وثلاثة من أعلام الشوق :

حبُّ الموت مع الراحة ، وبُغْضُ الحياة مع الدَّعَة ، ودوامُ الحزن مع الكفاية » .

وقال ذو النون :

« ثلاث من علامات الخوف :

الورع من الشبهات ملاحظةً للوعيد ، وحفظ اللسان مراقبةً لنظر العظيم ، ودوام الكَمَد إشفاقاً من غضب الحليم » .

« وثلاث من علامات الإخلاص :

استواء المدح والذم من العـامة ، ونسيان رؤيتـهم فى الأعمال نظراً إلى الله ، واقتضاء ثواب العمل فى الآخرة بحسن عفو الله » .

« وثلاثة من أعلام الخمول :

ترك الكلام لمن يكفـيه الكلام ، وتـرك الحرص فى إظهـار العلم عند القُرَناء ، ووجدان الألم لكراهة الكلام عند مخالفة الرأى، والاحتمال عن الورى إخباتاً (١) للرب ، ونسيـان إساءة المسيء عـفواً عنه ، واتسـاعاً عليه » .

« وثلاثة من أعلام التقوى :

تركُ الشهوة المذمومة مع الاستـمكان منها ، والوفاءُ بالصالحات مع نفور النفس منها ، وردُّ الأمانات إلى أهلها مع الحاجة إليها » .

« وثلاثة من أعلام الاتِّعاظ بالله :

الهربُ إليه من كل شيء، وسؤالُ كل شيء منه، والدلالُ فى كل وقت عليه » .

« وثلاثة من أعلام الرجاء :

العـبادةُ بحـلاوة القلب ، والإنفاقُ فى سـبيل الله برؤية الـثواب ، والمثابرةُ على فضائل الأعمال بخالص التنافس » .

« وثلاثة من أعلام الحب فى الله :

بَذْلُ الشيء لصـفاء الودِّ ، وتعـطـيلُ الإرادة لإرادة الله ، والسَّخَـاءُ بالنفس ، والمشاركةُ فى محبوبه ومكروهه بصفة العقد » .

---

(١) الإخبات : الخشوع .

« وثلاثة من أعلام الحياء :

وَزْنُ الكلام قبل التفوُّه به ، ومُجَانَبةُ ما يحتاج إلى الاعتذار منه ، وتركُ إجابة السفيه حِلْماً عنه » .

فأما الحياء من الله ـ تعالى ـ فهو ما قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« أنْ لا تَنْسَ المقابرَ والبِلَى ، وأن تحفظَ الرأسَ وما حَوَى، وأن تتركَ زينةَ الحياةِ الدُّنيا » .

« وثلاثة من أعلام الأفضال :

صلةُ القاطِع ، وإعطاءُ المانِع ، والعفوُ عن الظالِم » .

« وثلاثة من أعلام الصِّدق :

مُلازَمة الصادقين ، والسُّكون عند نظر المنفوسين ، ووجدان الكراهة لاطِّلاع الخَلْق على السرائر ، واستقامة على الحق سرّاً وجهراً لإيثار رب العالمين » .

« وثلاثة من أعلام الانقطاع إلى الله :

تقييم العلم ، وتلقين الحِكَم ، وتأليل الفهم[1] » .

« وثلاثة من أعلام المروءة :

إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، ونشر الخُلُق الحَسَن ».

« وثلاثة من أعلام التودُّد :

التأنِّى فى الأحداث ، والتوقُّر فى الزَّلاَّت[2] ، والترفُّق فى المقال » .

---

(١) أى : تحديد الفهم .

(٢) أى : المساعدة عند الشدائد .

« وثلاثة من أعلام التسليم :

مقابلة القضاء بالرضاء،والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء » .

« وثلاثة من أعلام الإيمان :

إسباغ الطهارات ، وارتعاش القلب عند الفرائض حتى يؤديها ، والتوبة عند كل ذنب خوفًا من الإصرار » .

« وثلاثة من أعلام حسن الخُلُق :

قلة الخلاف على المعاشرين ، وتحسين ما يرد عليه من أخلاقهم ، وإلزام النفس اللائمة فيما يختلفون فيه كَفّاً عن معرفة عيوبهم » .

« وثلاثة من أعلام الرحمة للخَلْق :

بكاء القلب لليتيم والمسكين ، وفقدان الشماتة بمصائب المسلمين ، وبذل النصيحة لهم متجرِّعاً لمرارة ظنونهم ، وإرشادهم إلى صالحهم ، وإن جهلوه وكرهوه » .

« وثلاثة من أعلام الاستغناء بالله :

التواضع للفقراء المتذلّلين ، والتعظُّم على الأغنياء المتكبِّرين ، وترك المعاشرة لأبناء الدنيا المستكبرين » .

« وثلاثة من أعلام الحياء :

وجدان الأُنس بفقدان الوحشة ، والامتلاء من الخلوة بإدمان التفكُّر، واستشعار الهيبة بخالص المراقبة » .

« وثلاثة من أعلام المعرفة :

الإقبال على الله ، والانقطاع إلى الله ، والافتخار بالله » .

« وثلاثة من أعلام الرُّشْد :

حسن المحاورة ، والنصح عند المشاورة ، والبِرُّ فى المجاورة » .

« وثلاثة من أعلام السعادة :

الفقه فى الدين ، والتيسير للعمل ، والإخلاص فى السعى » .

« وثلاثة من أعلام الصَّلاح فى الغِنَى :

الزهد فى الحرام تاركًا له ، وإخراج الحقوق من المال أداءً للفرض فيه ، والتواضع لجميع الناس خوفاً من المكر » .

« وثلاثة من أعلام الصَّلاح فى الفقر :

القناعة بالمقدَّر له من الرزق ، وطلاقة الوجه إظهاراً للشكر عن النعم ، وترك التواضع للمكثر طمعًا فيه » .

« وثلاثة من أعلام حب الآخرة :

كثرة البكاء والذكر لها، ودوام الشوق لها، وبغض الدنيا من أجلها» .

« وثلاثة من أعلام اليقين :

قلة المخالفة للناس فى العشرة وترك المدح لهم فى العطيَّة والتنزُّه عن ذمِّهم فى المنع والرَّوِيَّة » .

« وثلاثة من أعلام التَّوكُّل :

نقض العلائق ، وترك التملُّق فى العلائق ، واستعمال الصدق فى الخلائق » .

« وثلاثة من أعلام الصبر :

التباعد عن الخُلَطاء فى الشدة ، والسكون عليه مع تجرُّع غُصَص البَلِيَّة ، وإظهار الغِنَى مع حلول الفقر بساحة المعيشة » .

« وثلاثة من أعلام الزُّهْد :

قِصَرُ الأمل ، وحبُّ الفقر ، واستغناءٌ مع صبر » .

« وثلاثة من أعلام العبادة :

حبُّ الليل ليسهر بالتهجُّد والخلوة ، وكراهة الصبح لرؤية الناس والغفلة ، والبَدَار بالصالحات » .

ويمكن أن يُعدَّ من ثلاثياته ما حَدَّث به على بن عبد الله الكرخى ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« مفتاح العبادة الفكرة ، وعلامة الهوى متابعة الشهوات ، وعلامة التوكل انقطاع المطامع » .

ويروى عبد القدوس بن عبد الرحمن ، قال :

قيل لأبى الفيض ذى النون :

ـ كيف أصبحت ؟

قال :

« أصبحت تَعِباً إن نفعنى تعبى ، والموت يجدُّ فى طلبى » .

وقيل له : كيف أصبحت ؟

فقال :

« أصبحت مقيماً على ذنب ونعمة، فلا أدرى من الذنب أستغفر .. أم على النعمة أشكر ؟ » .

وقيل له : كيف أصبحت ؟

قال :

« أصْبَحْتُ بَطَّالاً عن العِبَادة ، متلوثاً بالمعَاصِي .. أتمنى منازل الأبرار ، وأعمل عمل الأشرار » .

وأرسل الوليد بن عتبة الدمشقى إلى ذى النون كتاباً يسأله فيه عن حاله ، فكتب إليه :

« كتبتَ إليَّ تسألنى عن حالى ، فما عسيتُ أن أخبرك به من حالى وأنا بين خِلَالٍ موجعاتٍ ؟ ..

أبكانى منها أربع :

حبٌّ عينى للنظر .. ولسانى للفضول ، وقلبى للرياسة .. وإجابتى إبليس ـ لعنه الله ـ فيما يكرهه الله .

وأقلقنى منها أربع :

عينٌ لا تبكى من الذنوب المنتنة ، وقلبٌ لا يخشع عند نزول العظة ، وعقلٌ وَهَنَ فَهْمُهُ فى محبة الدنيا ، ومعرفةٌ كلما قبلتها وجدتنى بالله أجهل .

وأضنانى منها أربع :

أنِّى عدمتُ خيرَ خِصَال الإيمان : الحياء .. وعدمتُ خيرَ زاد الآخرة : التقوى .. وفنيتْ أيامى بمحبتى للدنيا ، وتضييعى قلبًا لا أقتنى مثله أبدًا » .

وسأله بعضهم عن حاله فقال :

« ما لى حالٌ أرضاها، ولا حالَ أرضاها .. كيف أرضى حالى لنفسى وأنا لا ففى بما أراد منِّى ؟!

.. ثم كيف لا أرضى حالى ولا يكون منِّى إلا ما أراد من الأحوال ؟! ولست أدرى أيهما أحسن ؟ .. حُسْنُ حالى فى إحسانه إلىَّ ، ثم حُسْنُ حالى فى سوء حالى : إذ كان هو المختار لى ؟! » .

وقال :

« مَنْ وثقَ بالمقادير استراح، ومَنْ تقرَّب قرب، ومن صفا صُفِىَ له » .

والحق - فى نظر ذى النون - لا يمكن وصفه إلا بصفات السلب، ولذا يقول :

« كلُّ ما تصوَّر فى وَهْمِكَ فالله بخلاف ذلك » .

وقال :

« مَنْ أرادَ التواضعَ : فَلْيُوَجِّهْ نَفْسَهُ إلى عظمةِ الله .. فإنها تذوبُ وتصفو .

.. ومَنْ نظرَ إلى سلطانِ الله ذهبَ سلطانُ نفسه : لأن النفوسَ كلَّها فقيرةٌ عند هيبته » .

وقال :

« احذرْ أن تنقطعَ عن الله فتكونَ مخدوعاً .. وكلُّ مَنْ نَظَرَ إلى عطائه ولم ينظرْ إليه فهو مخدوع » .

وقال :

« أهل القـرآن هم الذين أنْصَبُـوا الأبدانَ حتى نحلتْ أبدانهم ، وذبلتْ شفاهُهم ، وهملتْ عيونُهم » .

رضى الله عن ذى النون ، وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدنا ومولانا محمد ـ الفاتح لِمَا أُغْلِق ، والخاتم لِمَا سَبَق ـ وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

مراجع الكتاب

١ـ القرآن الكريم .
٢ـ أخبار العارفين لابن باكويه .
٣ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء لعلى بن يوسف القفطى .
٤ـ تاريخ ابن عساكر .
٥ـ الجامع الصحيح للترمذى .
٦ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبى نعيم الأصبهانى .
٧ـ السر المكنون فى مناقب ذى النون لجلال الدين السيوطى .
٨ـ السنن الكبرى للبيهقى .
٩ـ شعب الإيمان للبيهقى .
١٠ـ صحيح البخارى .
١١ـ صحيح مسلم .
١٢ـ طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى .
١٣ـ الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى .
١٤ـ عوارف المعارف للسهروردى .
١٥ـ الكواكب الدرية للمناوى .
١٦ـ مجموعة ما ترجم عن المستشرق « نيكلسون » .
١٧ـ محاسن التأويل لجمال الدين القاسمى .
١٨ـ المسند للإمام أحمد بن حنبل .
١٩ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس .

* * *